التراث في فكر المجددين

قاسم أمين

١٢٧٩ - ١٣٢٦هـ / ١٨٦٣ - ١٩٠٨م

أ. د. حسين نصار(*)

يتفق المؤرخون للحضارة المصرية الحديثة على أن قاسم أمين ، المولود من أب تركى عثمانى وأم مصرية صعيدية كان من عمد هذه الحضارة. فقد كان نصير المرأة الذى وهب حياته للدعوة إلى السفور وتحرير المرأة، وأصدر كتابين خصصهما لذلك إلى جانب ما كتبه من مقالات. ومن ثم كان أحد مجددى الفكر المصرى.

فإذا تركنا هذه الدعوة إلى ما نحن فيه، وجدناه يؤمن بأن الكون بأسره إنما يخضع لنظام صارم، وتحكمه قوانين لا تتخلف ثمراتها . فهناك وحدة فى قوانين الكون ونظمه، وهناك وحدة فى قوانين تطور المجتمعات عبر كل العصور، وفى كل البيئات.

ويدخل هذا الإيمان المجتمعات الشرقية فى دائرة التطور البشرى العام، ويرفض موقف أولئك الذين يعادون التطور على وهم أن بالإمكان إيقاف قانونه عن العمل، ويريدون استثناء هذه المجتمعات من التأثر بنهضات الآخرين، والعودة إلى الماضى أو الحفاظ على بقايا آثاره التي تشد المجتمعات الشرقية إلى الوراء، بحجة الزعم بأنها ذات خصوصية تستعصى على قبول القوانين العامة والموحدة لتطور الكون والمجتمع والإنسان (٣٦، ٣٩).

ونبه قاسم أمين على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مُسَنّميا لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية، واستعداده للنظر فيها،. والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون، ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه (٣٨٠).

وانطلق من هذه الرؤية ومن الإيمان بقانون التطور إلى إنكار القول بكمال اللغة العربية منذ نشأتها وتفوقها على غيرها. ودعا إلى أن نعطى حق صك كلمات جديدة، قال: «يظهر أن باب الاجتهاد أغلق فى اللغة كما أقفل فى التشريع . فقد صار من المقرر بيننا أن اللغة العربية وسعت وتسع كل شىء.

---

* المشرف على لجان التحقيق بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لكى يكون هذا الاعتقاد صحيحا يجب أن نفرض أن هذه اللغة نتيجة معجزة، فظهرت كاملة من يوم وجودها فى العالم، وهذا يناقضه قيام الدليل على أن جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرقى العام، وتابعة فى أطوارها لسير الإنسانية، فهى إذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التى لا تزال تنتج وتبدع كما فعلت فى الماضى، ولا أدرى لماذا يريد قومنا أن يستبعدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة، وطرق التعبير الجميلة التى نسمعها أحيانا فى لغة العامة بحجة أنها لم ترد على لسان العرب.

نحن خلفاء العرب فى لغتهم، فكل ما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يعد عربيا بالطبع» (١٤٢ - ٣).

وقال: «كلما أراد الإنسان أن يعبر عن إحساس حقيقى رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام، أنه قال شيئا عاديا أقل مما كان ينتظر ، ووجد أن أحسن ما فى نفسه بقى فيها مختفيا.

لتصوير إحساس كامل ، وتمثيل أثره فى صورة مطابقة للواقع ، يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة، ألفاظ غير العتيقة البالية، يلزم اختراع ألفاظ حديثة»(١٦٧).

وقال: «كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة. لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم، ومرت عليها القرون الطويلة، وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام، واللغات الأوربية أخذت تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والإيضاح والدقة والحركة والرشاقة، صارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث.

رغما عن هذا، قد أجمع قومنا على أن لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول، ويزعمون أنها سيدة اللغات، كما اجتمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا»(١٤٤) .

بل وصل به الأمر إلى درجة اعتقد أن الكثيرين لا يتفقون معه فيها. فقد استهجن العدول عن الكلمات الأجنبية الدخيلة، والبحث عما يحل محلها من اللغة العربية. قال: «لا أدرى : ما هى غاية الكتّاب الذين - إذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد - يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها، كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الأوتوموبيل؟ إن كان المقصد تقريب المعنى إلى الذهن، فالكلمة الأجنبية التى اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية. وإن كان مقصدهم إثبات أن اللغة العربية لا تحتاج إلى اللغات الأخرى،

فقد كلفوا أنفسهم أمرا مستحيلا. إذ لم توجد ـ ولن توجد ـ لغة مستقلة عن غيرها، مكتفية بنفسها(١٤٢).

وأرى الرأى قد خان قاسم أمين، لأنه لم يكن من علماء اللغات، فالكتّاب الذين وصف عملهم لم يكن مقصدهم ما ذكر، وإنما كان مقصدهم الحفاظ على عروبة اللسان العربى ما أمكن ذلك، بالطرق المعروفة للتوسع، فإن عجزوا سمحوا باستخدام الدخيل مع إعطائه مسحة عربية، وإلا أبقوه كما هو، والكلمة نفسها التى استشهد بها تشهد على ذلك.

ودعا قاسم أمين إلى وجوب القيام بإصلاح حال اللغة العربية، وتيسيرها على المتكلمين، ورأى من أجل ذلك تسكين الكلمات مهما كان موقعها الإعرابى. قال: «لم أر بين جميع من عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن. أليس هذا برهانا كافيا على وجوب إصلاح اللغة العربية.

لى رأى فى الإعراب هنا بوجه الإجمال، وهو أن نبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل، بهذه الطريقة ـ وهي طريقة جميع اللغات الإفرنكية واللغة التركية أيضًا ـ يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال إلخ، بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة، إذ تبقى مفرداتها كما هى.

فى اللغات الأخرى يقرأ الإنسان ليفهم، أما فى اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ. فإذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة (ع ل م) يمكنه أن يقرأها عَلِم أو عُلِم أو علِم أو عَلَّم أو عُلِّم، ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق إلا بعد أن يفهم الجملة، فهى التى تعين النطق الصحيح، لذلك القراءة عندنا من أصعب الفنون»(١٤٣).

وعلى الرغم مما يشتمل عليه هذا القول من تعميم لا ينطبق تماما على ما ذكره من لغات، فإن الجزء الأخير الخاص بالخط العربى صار القول المأثور الذى ردده ـ وماتزال تردده ـ ألسنة من يعيبونه.

واستنكر ـ فيما استنكره من أمور اللغة ـ ما سماه اللغويون (المصاحبات) يعنون به الكلمات التى تكاد تتلازم فى الثقافة العربية، قال: «توجد كلمات ألصقها الكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة، فحيث تكون إحداها تكون الأخرى، حتى ملت طول العشرة، كالعالم العلامة، والحسيب النسيب، والصديق الحميم، والسيدة المصونة، فإما طلاق يرد إليها حرية الاقتران بكلمات أخرى، وإما على الأقل حيلولة مؤقتة تستريح فى أثنائها من هذه الشركة القهرية»(١٥٢).

وأعتقد أن الزمن بحكم التطور استجاب لدعوته ففك اقتران كثير من هذه الكلمات أو ربطها فى مصاحبات جديدة.

لا عجب إذن أن يعيب الشعراء والكتاب والعلماء الذين لا يعبرون عن أفكارهم فيما يكتبون فى مصر، ويرى أن فى عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة والسماع ومستودعات لأفكار غيرهم يتعاملون بهذه البضاعة التى ليست لهم، ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئا من أنفسهم، كل عملهم محصور فى تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن. فإذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا !! آه فلان ما أحلاه ! علان ليس في العالم مثله!(١٤٤).

ولا عجب أن نراه يصرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء و ما توارثه عنهم الأبناء ، ورمى الآخذين بأقوال السابقين بالحمق والسفاهة(٣٨٠).

وقد تردد قاسم أمين في الطريق الذى تسير فيه المدنية المصرية الحديثة، بين طريق المدنية الإسلامية القديمة وطريق المدنية الأوربية، وأخيرا استقر على أن مصر اختارت - بالفعل - النمط الأوربي، وأن العودة عنه تكاد تدخل فى عداد المستحيلات. «إن مصر تتحول إلى بلد أوربى بطريقة تثير الدهشة. وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاءها وثيابها تتّسم كلها بطابع أوربى، إنها تهتم بكل ما تكتبه أوربا أو تفعله، وتجد كل الأفكار التى تحرك حماس أوربا صداها هنا»(٩٥).

وعلى الرغم من ذلك أعلن قاسم أمين أن الأدب العربى كانت له مكانته القديمة، التي كانت له عصر ازدهاره وازدهار حضارة أهله (٣٤ - ٥).

ودعا إلى وجود عبقرى يعيد له هذه المكانة، ورأى أن ذلك يمكن أن يتم بواسطة إصلاحين أساسيين ، هما:

١ - أن يصبح هذا الأدب انعكاسا للتغيرات التى يشهدها الواقع المعاصر.

٢ - وأن يطوّع هذا الأدب لما جدّ فى المجتمعات الجديدة من عادات تعبيرية لم يعرفها الأسلاف (٣٤ - ٥، ٢٩٢).

وحذر فى أكثر من موضع من تقليد التراث فى كل المجالات، وطلب الانتفاع به فى تجنب نقائصه، قال فى مجال المدنية: «يجب أن نرجع إلى التمدن الإسلامى القديم، لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه ، بل لأنه يحتوى على كثير من أصول حالتنا

الحاضرة، لقد انتفعت به الإنسانية، واستكملت ما كان ناقصا منها فى بعض أدوارها.. ولكن كثيرا من ظواهره لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية.

إن علينا أن نزنه بميزان العقل، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الإسلامية وأسباب انحطاطها، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم، وفى مستقبل من الزمان (٨٣، ٩٥، ٣٨٠).

ومع ذلك وصف قاسم أمين المصريين - دون قدح أو مدح - بأنهم يقومون بتغذية وجدانهم بالأدب [العربى] القديم الذى ما تزال بيننا بعض آثاره الرائعة، وبالأدب الفرنسى، لأن اللغة الفرنسية هى أكثر اللغات الأجنبية انتشارا فى مصر (٢٩٢). وعلى الرغم من هذا الحياد، يمكن القول إنه كان إلى الأدب الفرنسى أميل منه إلى الأدب العربى، ولذلك لم يستشهد بالشعرالعربى إلا مرتين (٢٢٩، ٤٥٦) على حين أكثر من اقتباس الأقوال الفرنسية.

نتبين من هذا أن قاسم أمين وجّه نظره كله إلى الثقافة الفرنسية ، ولم يمنح التراث العربى إلا فضلة منها، اقتصر فيها على عيب احتذائه، ولم يتعرض لشىء من القضايا المتصلة به التى خاض فيها رفاعة الطهطاوى مثلا.

المرجع:

قاسم أمين: الأعمال الكاملة بعناية د. محمد عمارة، دار الشروق، ط ٢، ١٤٠٩/ ١٩٨٩.